المشرق

تذكار مولد لويس ڤويليو

بطل الصحافة الكاثوليكية في فرنسة

للاب لويس شيخو اليسوعي

ان كان الصحافي الكاثوليكي يُسرّ بالكتابة عن الرجال العظام فانَّ سروره اعظم بنشر مآثر فرسان الاقلام الذين قدّسوا يراعهم بالجهاد الصالح في حماية الدين والأدب فانَّ مثالهم يستفزُّهُ ويشحذ قريحتهُ اذ يجد فيهم الائمة سبقوهُ فنهجوا لهُ طريقاً شريفة مجيدة لقوا فيها ما يلقاهُ من المالك الوعرة والعقبات الكؤود. ومن ثمَّ لم نرَ بُدًّا من مشاركة الصحافة الكاثوليكيَّة الاوربيَّة في تذكار من يعدُّونهُ كإمام الصحافيين في القرن المنصرم نعني بهِ لويس ڤويليو

احتفلت اسبانية الكاثوليكيَّة قبل اربع سنوات بذكر مولد كاتبها المقدام وخطيبها اللسان دونوزو كورتيس (١٨٠٩ — ١٨٥٣) فوفوهُ حقَّهُ من المديح وأطرأوا مآثرهُ الكتابيَّة في الصحف وخطبهُ على المنابر وتآليفهُ في الدفاع عن حوزة الدين فلم يشأ الفرنسويون ان يتأخروا في ذكر بطلهم الذي شرَّف الصحافة بمقالاتهِ الضافية وكتاباتهِ الجلية في كلّ فنون الأدب وكان صديقاً حميماً لدونوزو كورتيس جريًا في ذات الميدان وهما كفرسي رهان

والحقُّ يقال انَّ لويس ڤويليو يستحقُّ اكثر من سواهُ ان تلهج بمدحهِ الالسنة ويُخلَّد ذكرهُ على صفحات القلوب فانَّ حياتهُ ليست كحياة غيرهِ مشوبةً بالمحاسن والمساوئ وبالمحامد والمثالب بل كانت كسلسلة اعمال صالحة ومساعٍ مشكورة في

خدمة كل مشروع حميد. وهو في كل ذلك لا يطلب نفعاً شخصياً او جزاء بشرياً حتى انهُ رفض ما قدَّموهُ لهُ من الاوسمة والامتيازات الشرفيَّة لتكون خدمتهُ خالصةً لوجه الله. لكنَّ الرب الذي يرفع المتواضعين لم يسمح بخمول عبدهِ. وهذه الحفلات بمناسبة المئة الاولى لتذكار مولدهِ دليل جديد على صحَّة الآية الانجيليَّة ان من اتَّضع ارتفع

ولا يجوز لشرفنا السكوت في هذه الفرصة لأن من يتلو تآليف لويس فويليو وشقيقهِ اوجان يجد فيها كلاماً مستفيضاً في وصف احوال الشرقيين الاجتماعيَّة والدينيَّة والادبيَّة فألفت الينا انظارَ مواطنيهِ. وهذا ما حدا بنا الى كتابة الاسطر الآتية حيث نعرِّف بوجيز الكلام الرجل ثمَّ الكاتب ثمَّ المسيحي

١ الرجل

في احد ايَّام الربيع من السنة ١٨١١ كانت فتاة جميلة المنظر رقيقة الطباع تشتغل بالخياطة عند شبَّاك بيتها المزدان بالزهور وهي تتشمَّس بعد برد الشتاء وتغنِّي بصوتٍ رخيم لتخفِّف عبء الشغل اذ مرَّ امام البيت شابٌّ عامل على كتفهِ ادوات صنعتهِ وكان يتجوَّل ليصطنع البراميل. فرأتهُ الفتاة مضنوكاً بالتعب فدعتهُ ليأخذ في بيت اهلها نصيباً من الراحة. فدخل شاكراً متأثِّراً من لطف الفتاة وما قضى ساعةً هناك حتى توسَّم فيها الخير وعلم انهُ سيجد في خطبتهِ للبنت سعادة حياتهِ وما لبث ان اقترنا بالزواج المسيحي يرضى اهليها وسكنا في تلك القرية المدعوَّة بُوَان من مقاطعة لُوَارهْ في اواسط فرنسة

وهذان الزوجان هما والدا لويس فويليو كانا رقيقَي الحال يعيشان من شغلهما هذا من ادواتهِ وتلك من إبرتها لكنهما كانا غنيَّين بمراهب القلب متأصلين في دينهما (١ رغماً عمَّا فشا في ذلك الوقت من روح الكفر بمساعي زعماء الثورة والجمعيَّات السريَّة. وكانت امُّهُ تذكر بالفخر انَّ عصابة من الاوباش هجموا سنة ١٧٩٣ على كنيسة القرية والصليب المنتصب امامها يريدون نقض اركان بيت الله وتحطيم الصليب فلم يجسر احد من الاهلين على ردّ كيدهم فوثبت والدتها جدَّة لويس كلبوءة وقبضت على فأس محدَّدة ودعت لمناصرتها نساء القرية فكان لزئيرها صدًى

١) بقي ابوهُ مدَّةً متباعداً عن الفروض الدينيَّة ثم تاب

في قلوب رفقائها فأحاطن بالكنيسة والصليب إحاطة السوار بالزند فصرخت زعيمتهن الى اولئك الاشرار وعيناها تقدحان بالشرر انها تقتل بفأسها اوّل من يرفع يدهُ على الصليب. فتحقّق اولئك الاشرار انها تفعل فتكصروا على اعقابهم فشلين

كان مولد ڤويليو بين دويّ المدافع وصلصلة السلاح في ١١ تشرين الاوّل سنة ١٨١٣ اذ كان نابليون الكبير ناوياً ان ينهض نهضة الاسد ليسحق اعداءهُ المتحالفين لمحاربته لكنَّ الله كان قد امهلهُ منذ رفع يدهُ على نائب السيد المسيح فاتمهُ في السجن وضيَّق عليهِ فما لبث نابليون ان عرف صحّة المثل : « أن من يأكل لحم البابا يتخبّل »

فنشأ لويس وهو لم يعرف تلك الامور الخطيرة التي جرت سنة مولدهِ الّا بعد حلولها بزمان . وقد كانت السنون الاولى من حياتهِ كحياة احداث القرى قضاها في درس مبادئ العلوم في مكتب قريتهِ فاخذ منها كفايتهُ على انَّهُ كان يتحسَّر اذ يذكر ما وجد في تلك المدرسة العلميَّة من سوء التربية لقلّة المدارس الدينيَّة في ذلك العهد

واذ كان والدا لويس في حاجة الى مساعدتهِ بقيا مدَّةً مرتابين لا يعلمان اي حرفة يعلّمانهِ ليرتزق منها وهما في هذا الفكر اذ أفلس الرجل الذي كان ابوا لويس ائتمناهُ على مالهما فاضطرّا الى مغادرة قرية بوان طلباً للعاش فوجدا في باريس شغلاً يسدّ عوزهما. واذ علم احد المحامين انَّ لويس ابنهما يحبُّ الدرس ضمّهُ الى مكتبهِ مع عدَّة شبَّان كانوا يساعدونهُ في اعداد اوراق الدعاوي

وكان المحامي المذكور أخاً لشاعر شهير في ذلك الوقت اعني كازمير ديلافيني فكان كتَّاب اخيهِ يجتمعون لقراءة قصائدهِ ويسبحون في نظم الشعر على مثالهِ. فاخذت الحميَّة لويس ڤويليو فشرع يكتب وينظم فيتعجَّب رفقتهُ الشبَّان من كتاباتهِ الرائقة

وفي تلك الاثناء حدثت ثورة السنة ١٨٣٠ التي قوَّضت عرش الملك البوربون شرل العاشر. فعاد اهل الثورة الى مقابحهم في حقّ الدين والمجتمع الانساني لكنَّ العقلاء الذين كانوا يتذكَّرون سيول الدماء التي اجراها الفوضويون سنة ١٧٩٣ خافوا من تكرار تلك الفواحش فطلبوا الوسائل ليوقفوهم عند حدّهم لاسيما بتحرير الجرائد الجافظة. فعرضوا على لويس ڤويليو ان يكتب في ما انشأوهُ من الجرائد في بعض المدن فرضي وعمرهُ لا يتجاوز اذ ذاك التسع عشرة سنة

فما كاد يخطُّ قلمهُ في الدواة حتى عرف القرَّاء انَّهُ ابن نجدتها فاخذ النـاس يتزاحمون على مطالعة كتاباتهِ حيثما ظهرت فكتب في عدَّة صحف والتوفيق يساعدهُ حتى جعلوهُ رئيس انشائها بعد ان كان من محرّريها ثم جـاء الى باريس ونال فيها الشهرة كما احرزها في المدن التي دونها

— وكان لويس كأهل ذاك العصر لا يكاد يبالي بامر الدين فيشتغل بالسياسة مدافعاً عن النظـام والسلطة المدنيَّة الَّا انَّهُ لحظ بعد زمن قليل انَّ السياسة بلا دين كبناء بلا اساس ينقضهُ كل من يتعرَّض لهُ . فتبيَّن عجز السياسة لإصلاح العمران بل استنكف من الكتابة في امور اختبر ضعفها بل تحقَّق بطلانها . وكان يرى في نفسهِ اشمئزازاً من الدنيا وخزعبلاتها . وهو لم يجد ما يسندهُ في تيَّار اهوائها فهمَّ ان يطلب لقلبهِ راحةً في الاسفار فقصد ان يبحر الى الاستانة ومنها يزور الشرق لكنَّ الله غيَّر في الطريق مسيرهُ فتوجَّه الى رومية وهو لا يريد من سفرهِ اليها سوى ترويح البال فكانت لهُ رومية كطريق دمشق لبولس الرسول فتجلَّى لهُ الله وكشف لهُ كنوز رحمتهِ على يد بعض اصدقائهِ الافاضل الذين كانوا في رفقتهِ واذ كان يوماً يزور معهم احدى كنائس رومية مسَّ الله قلبهُ وبدَّد ظلمات عقلهِ فاناب الى خالقهِ وخرج منها رجلاً جديداً يكرّر مع شاول : ماذا تريد يارب ان اصنع ؟ . وكان اذ ذاك في رومية يسوعيٌّ شهير بعلمهِ وتقاهُ الاب روزاتن اجتمع بهِ ل . ڤويليو وبعد ان استنار بنارهِ وأرسخ لديهِ قدَمهُ في ايمانهِ جاهر بالتوبة واقتبل الاسرار المقدسة . وقد صنَّف في ذلك كتاباً من أمتع الكتب دعاهُ « رومية ولوريتو » فصَّل فيهِ كارغستيوس في كتـاب اعترافاتهِ خبر ارتداده وهو تأليف يسيل رقَّةً لمحاسنهِ وتتدفَّق من مطاويهِ عواطف الشكر للربِّ الذي انقذهُ من هوَّة الجهل وهداه الى سواء السبيل

ثمَّ تجوَّل في سويسرة وكتب تفاصيل رحلتهِ اليهـا وعاد الى باريس سنة ١٨٤٢ حيث تيسَّرت لهُ الامور وعرض عليهِ ارباب الامر الدخول بين عمَّـال الحكومة مع الامل الوطيد بالبلوغ الى مناصبها الرفيعة لكنَّهُ بعد ان جرَّب خدمة الدولة مدَّة رأى انَّ حياتهُ اعلى قدراً من ان يصرفها في وظائف مبتذلة تُغنيهِ دون ان يتاجر بالوزنات التي نالها من سيِّدهِ

وفيما هو يفكّر في دعوتهِ اذ ارسلهُ وزير الدولة گيزو الى الجزائر ليوقفهُ على

احوال هذه المستعمرة التي كانت فرنسة تملكها منذ عهد قريب فلبّى لويس الى طلبته وقضى في الجزائر ستّة اشهر في ضيافة الجنرال بوجو احد اصدقائه سابقاً. فكتب عن احوال تلك البلاد تقارير سرّيّة شكره على تدقيقها وضبطها وزير الدولة واردف ذلك بكتاب جليل عنوانهُ " الفرنسويون في الجزائر "

وفي تلك الاثناء كان يلحظ تديّن الجزائريين ويقابل بين ما هم عليه من التعصّب لدينهم وما يراهُ في المستعمرين من مواطنيه من الاستهتار فيسوءُهُ الامر. فكان يسعى طاقتهُ ان يظهر للجميع اعتبارهُ لدينه فيحضر كل الحفلات الدينيّة بلا حياء بشري. فأثّر مثلهُ في بعض المسلمين واليهود الذين طلبوا التنصّر. واختارهُ اسقف المدينة ليكون شبيناً اورسوي اعتمد بحضوره وكانت شبينة المتنصر احدى نساء الامير احمد باي الجزائر سابقاً وهي ايضاً من المتنصرات

وقد اتاحهُ الله في مدّة اقامته في افريقية نعمةً جديدة كان يطالبها من الله بشدّة تزيد بها رجوع اخيه اوجان الى الدين بعد اهماله فرائضه منذ صباه. فارتدّ كاخيه لويس على يد احد الآباء اليسوعيين في باريس الاب ڤيارين الواعظ الشهير. فأنعم الخبر قلب لويس فرحاً فهنّأ شقيقهُ بقوله انّ العلائق الاخويّة الوثيقة التي كانت بينهما قد تضاعفت فلن يفصمها الدهر الى الابد. وكان اوّل ما فكّر فيه عند عودته الى باريس ان يضمّ اخاهُ الى صدره ويمزجا سويّةً عبرات الفرح شاكرَين لله على نعمة زادتهما حبّاً واخاء

ثمّ اخذ الاخوان يتحادثان على ما صار اليه دين اجداد الفرنسويين من التقهقر بسبب الثورة الفرنسويّة وتعاليم زنادقة القرن الثامن عشر فخلع ذاك الجيل ربقة الدين القويم واستسلموا الى الكفر الذي حطّ بفرنسة الى هوّة الدمار. ثم قام اولادهم بعدهم فرضعوا مثلهم افاويق الضلال فنشّوا روح ڤولتير وروسّو بين مواطنيهم بخطبهم وكتبهم وجرائدهم حتى صار الجمهور ينظر شزراً الى الدين واربابه وينبذ تعاليمهُ الخلاصيّة الجديرة وحدها بان تخلّص الوطن من الاضمحلال

وكانت نتيجة هذا الحديث انّ الاخوين عزما على ان يوقفا قلميهما على الدفاع عن حياض الدين وشرف كنيسة المسيح التي ليس خلاص خارجاً عنها. وتناول لويس ڤويليو من ساعته قرطاساً فكتب الى الوزير گيزو يستعفي من مواصلة خدمة

وطنهِ في الدوائر الرسميَّة لينقطع الى الكتابة . ففعل هذا وهو يعلم بأن الكتابة لا توتيهِ من الارباح نصف ما يكسبهُ كعامل الدولة

ثمَّ اندفع لويس مطلقاً لقلمهِ عنانهُ فصنَّف تآليفهُ المعروف بأعطار رومية من أمتع مؤلفاتهِ وألطفها واحسنها انشاء وأدلها على تدينهِ وحبهِ للكنيسة لولا انهُ كان يفضّل التحرير في الجرائد

وكانت حينئذٍ الجرائد الكاثوليكيَّة خاملةً لتحامل اعداء الدين عليها وقلَّة كتبتها المبرّزين ولانقسام كلمة الحزب الكاثوليكيّ الفرنساويّ

ومن افضل هذه الصُّحف جريدة تدعى « الاونيفير » كان انشأها الاب مين (Migne) الشهير سنة ١٨٣٣ للدفاع عن الدين الَّا انهُ لكثرة اشغالهِ كان وكلّ امرها الى بعض الكتبة الذي لم يكسبوها سمعةً كبيرة ولذلك بقيت خاملةً لم يتجاوز عدد المشتركين فيها على ١٢٠٠ فكان الكاثوليك يبحثون عن كاتب ضليع يولُّونهُ انشاءها فوجَّهوا نظرهم الى الشاب فويليو وعرضوا عليهِ الامر فلبَّى دعوتهم بطيب الخاطر كأنهم وقفوا على جلّ رغائبهِ فباشر بالعمل سنة ١٨٤٣ وثبت عليهِ مدَّة اربعين سنةً فاضحى الاونيفير لسان حال الكاثوليك الصادقين الذين يقدّمون دينهم على كل شيء ويضحّون في سبيلهِ النفس والنفيس

فما مرَّ على المنشئ الجديد عدَّة اسابيع حتَّى كان لصوتهِ صدًى في قلوب كلّ مواطنيهِ ليس الكاثوليك فقط بل كلّ محبّي الانشاء الحرّ المتين فأقبل القرَّاء على الجريدة رغبةً في استجلاء عرائس افكار فويليو والتمتُّع باثار قريحتهِ حتى بلغ بعد مدَّة عدد المشتركين عشرة اضعاف ما كانت عليهِ قبلهُ

وكانت كتاباتهُ سيَّالة متفنّنة تُعرب عن كلّ عواطف نفس محرّرها فينفخ في كلّ الصدور حبَّ الفضيلة وذريها والبغض لكل السيّئات والاشرار

ولما رأى فويليو كثيرًا من الجرائد اللادينيَّة تصوّب صباح مساء نبالها الى الكنيسة واربابها لم يكتفِ بان يردّ سهامها بل شنَّ عليها الغارة وكشف عن سوءاتها وتتبَّع كتابات منشئيها فبيَّن بالتهكّم اللطيف جهلهم الفظيع واغلاطهم الجمَّة في كل ابواب العلوم وفي حسن الانشاء حتى أضحك منهم كل قرَّائهِ بل قرَّائهم فلم يتمهم الَّا السكوت او التحامل عليهِ بالسباب فزاد انحطاطهم في اعين ذوي الذوق

السليم. فكانت نتيجة كتابات فويليو انَّ الدين علا منارهُ وكبا زند الكفر وذويه

وكان لويس فويليو اخذ على نفسهِ ما خلا الجهاد ضدَّ الكفرة الدفاع عن الكرسي الرسولي وتعاليمهِ. وكان كثيرون من الكاثوليك في فرنسة لا يزالون متشبثين بآراء سقيمة اخذوها عن المبتدعين كالجنسينيين والغليكانيين المدَّعين بامتيازات باطلة لكنيسة فرنسة فهؤلاء اعتبرهم فويليو كآفة لوطنهِ وتصدَّى لآرائهم الواهنة وكان بينهم بعض ارباب الكهنوت فثارت ثوائرهم وقاموا وقعدوا لمعاكسة الاونيفير حتى ارادوا ان يُحرَموا قراءتهُ على رعاياهم لكنَّ الكرسي الرسولي انتصر للجريدة ولمنشئها فذهبت مساعيهم ادراج الرياح وفاز فويليو فوزًا باهرًا رفعهُ في اعين اصحاب التعاليم السديدة

وكما اوقف فويليو عند حدّهم المعادين للكنيسة في الصحافة وفي مصفّ الاكليروس كذلك حاول الدفاع عن الحبر الروماني وحرمة الكرسيّ الرسولي بازاء ارباب السياسة وضابطي زمام الدولة نعم انَّهُ كان يحترم السلطة لعلمهِ بان كل سلطة من الله لكنَّهُ ابى أن يعترف بانَّ للسلطة المدنيَّة حقًّا بمناهضة السلطة الدينيَّة ومن ثمَّ لم يخف بان يصرّح بأفكارهِ بكلّ حرّية لم تأخذهُ في ذلك لومة لائم بل كتب فصولًا استاء منها نابوليون الثالث فضايقوا على الاونيفير بالمراقبة ووجَّهوا اليهِ الإخطارات لكنَّهُ كان يقول مع رسل المسيح: لا أقدر أن لا اتكلَّم فالنار ولا العار. واذ رأوا ان تهديدهم لا يعمل في قلبهِ حكموا عليهِ بالحبس مدَّة شهر وبدفع غرامة باهظة. فخرج من حبسهِ مفتخرًا فرحًا بما نالهُ من الهوان لاجل الدين

ثمَّ عاد فويليو الى كتاباتهِ وكلُّها موسومة بسمة البراعة ووفرة المعلومات وخفَّة الروح والتفنُّن دون ان يغيّر في شيء خطَّتهُ وتراجع اقوالهِ حتى لم يجد نابوليون طريقةً لكسر شوكتهِ الَّا بتوقيف جريدتهِ مع الحظر على كل الجرائد ان تنشر مقالاتهِ. فبقيت الجريدة موقفة عدَّة سنين حتَّى اراد الامبراطور ان يتقرَّب الى الكاثوليك فسمح بنشرها فعاد فويليو الى تحريرها وخدم فرنسة خدماً لا يفي بها الشكر في اواخر عهد نابوليون ومدَّة المجمع الفاتيكاني وفي اثناء حرب فرنسة والمانية ولم يسمح قلمهُ حتى تثاقل على اكتافهِ عبءُ الايام فبقي كستار الجريدة ينفخ فيها

روحهُ الطيّبة كأنهُ يعيش باقلام رصفائهِ ولاسيّما اخيهِ اوجان وابني اخيهِ پيار وفرنسوا واختهِ اليزا

وقد كان موتهُ موت جنديّ باسل واذ شعر بقرب وفاتهِ كرّر هذه الالفاظ « اني اقدّم لك يا ربّ حياتي كمحرقة لخير الكنيسة » وكان آخر ما كتبهُ في مرضهِ الاخير مقالة عن الكردينال پي صديقهِ ونصير الكنيسة مثلهُ

ولمّا توفي ڤويليو نزع موتهُ سخيمةَ كل معاديهِ فكانت الجرائد باجمعها لساناً واحداً في اطراء نفسهِ الشريفة التي لم تعرف غير الواجب وفي تعظيم خلالهِ الطيّبة وتراهتهِ في الدفاع عن الدين وثباتهِ على خطّتهِ دون الاخذ بالوجوه . اما مدحهم لبلاغتهِ وحسن انشائهِ فانهم اقرّوا بكونهِ نسيج وحدهِ في الكتابة الافرنسيّة . وقد أقيمت لجنازتهِ حفلةٌ تقاطر اليها الناس من كل طبقات اهل باريس بينهم الاساقفة وعلية القوم ووفود الجمعيّات الخيريّة وممثلو الصحافة والمبعوثون من مجلسي الامّة والاعيان والفقراء وكلهم يثنون اطيب الثناء على فقيد وقف حياتهُ لمجد الله وخدمة الكنيسة وتنشيط كلّ اعمال الخير

٢ الكاتب

عرفتَ مما سبق ما كان عليهِ لويس ڤويليو من البراعة في الكتابة . على انّ هذه الخاصّة لم تأتهِ عفواً وقد رأيت انهُ ولد من اصل وضيع وتربّى في قرية لم تمتزْ مدوستُها بشيءٍ يُذكر

ولما انتقل الى باريس أورى زندهُ في مكتب ديلا ثيني بين رصفائهِ الشبّان . على انّ كتبة ذاك العصر كانوا نهجوا لهم طريقة من الكتابة يغلب عليها الزخرف الزائد والتعبير المقعّر والمعاني المبتكرة الغريبة والالفاظ الدخيلة فيتحرّر اصحابها من قوانين الكتابة التي بأمت بكتبة القرن السابع عشر الى ذرى المجد

فجرى لويس ڤويليو اوّلاً على خطّة معاصريهِ لكنهُ ما عتم ان رأى ما في هذه الطريقة من السقم والبهرجة الزائفة فعدل عنها واخذ يدرس بنشاط تآليف جهابذة قرن الآداب الافرنسيّة الذهبي كراسين وكورنايل وبوالو وبوسويت وفنيلون فشغف بمطالعتهم وصار يتعقّب آثارهم فتحسّن انشاؤهُ كثيراً بهذا الدرس

ثمَّ تحقَّق انَّ هؤلاء الكتبة انَّما بلغوا مقامهم الرفيع في الكتابة بدرس اللغة اللاتينيَّة امّ اللغة الافرنسيَّة واصل رونقها فكدَّ جبينهُ واسهر عينهُ في حفظ قوانين تلك اللغة حتى اتقنها فأدَّى بهِ الامر الى معرفة دقائق لغتهِ وخواصها حتى صار من افصح كتبتها لهُ البصر النقَّاد في غثها وسمينها

وكان مع تحسينهِ لانشائهِ يجهد نفسهُ في درس العلوم العصريَّة لا سيما تاريخ بلاده وآثارها. وخصَّ زمناً طويلاً بمعرفة تاريخ الكنيسة والعلوم الدينيَّة لئلَّا يحيد في كتاباتهِ عن جادَّة الحقّ. ولذلك تعمَّق في الفلسفة وملحقاتها

وقد برَّز لويس ڤويليو في جميع انواع الكتابة لهُ في كلّها مصنَّفات مستملحة يدرسها اليوم ارباب الاقلام فيأخذهم العجب من محاسنها وصفاء لغتها وانسجام انشائها. ولهُ في الوصف اليد الطولى اذا اراد تعريف شخص او مكان او حادث يكاد يصوّرهُ تصوير العيان فينفذ كلامهُ في شغاف القلب. ومن حسناتهِ اوصافهُ الدقيقة للأخلاق فيميّز في كلّ قوم او بلد او شخص ما يفرزهُ عن غيرهِ فينطبع ذكرهُ في قلب القارئ فلا يعرد ينساه

ولو اردنا تعداد كلّ مصنَّفاتهِ الدينيَّة والادبيَّة والتاريخيَّة والاجتماعيَّة لأخذنا العجب من وفرتها وحسن سبكها وتدقيق كاتبها في كل انحائها المتباينة

على انَّ لويس ڤويليو مع شهرة تآليفهِ واجماع المنتقدين على محاسنها قد تفرَّد في انشاء الصُّحف فانَّهُ قد جمع في شخصهِ كلّ صفات الصحافيّ الحقيقي من معارف جمَّة وسرعة خاطر وإرهاف قلم وذلاقة لسان وجرأة في الكتابة لا يثنيها غير صوت الضمير. وقد جمعوا عشرين مجلَّداً من نخب مقالاتهِ اقتطفوها من جريدة « الاونيڤير » يعدُّها الأدباء من اجمل الآثار الادبيَّة والاجتماعيَّة في القرن المنصرم

وكان لويس ڤويليو شاعراً مجيداً كما كان ناثراً بليغاً ولهُ القصائد الرنَّانة التي تدلُّ على سلامة ذوقهِ وجودة قريحتهِ وتفنُّنهِ وكان لا يطلب في نظمهِ عذوبة الشعر وزخرف الالفاظ بل بلاغة المعاني وتنفيذ مقاصدهِ في القلوب على صورة النظم الرائق. وقد جُمعت هذه القصائد في مجلَّدين عنون الواحد « بالافاعي » والآخر « ببنات بابل » يقصد في كليهما تأديب كتبة زمانهِ المنافقين

ولهُ مع ذلك الكتابات والرسائل التي تستغرق عدَّة مجلَّدات وفيها لآلئ ثمينة

من الانشاء الطيب ترى فيها ما كان عليهِ ذاك الكاتب من لطف الطباع ورقّة العواطف وقداسة الحياة. وقد وجّه تلك الرسائل الى كل مشاهير زمانهِ من اهل الدنيا والدين في سائر الامور السياسيّة والدوليّة والدينيّة والادبيّة . وألطف منها كتاباتهُ الاهليّة لاصحابهِ واقاربهِ ولاسيما صغار عائلتهِ وعائلة اخيهِ اوجان وهو فيها ابلغ منهُ في كتاباتهِ الى كبار الرجال. ويا ليت الزمان يسمح لنا بتعريب شيءٍ منها لرأى القرّاء علوّ مقام راقمها وادركوا سعة فضلهِ

٣ المسيحي

كان لويس فويليو رجلاً عظيماً وكاتباً شريفاً. لكنّهُ مسيحي اعظم واشرف. فانّهُ حقّق في نفسهِ كلمة الرسول المصطفى في رسالتهِ الى طيموثاوس الثانية: جاهد كجندي المسيح الصادق

نعم كان فويليو جندياً في كلّ حقيقة الاسم. فلهُ قائدهُ ولهُ رايتهُ ولهُ جهادهُ الشرعي الذي كلّلهُ الله بالفائز التامّ . وانّما كانت جنديّتهُ للملك يسوع اتّخذهُ قائداً وسرى تحت رايتهِ الجليلة

ومنذ كشف الله عن قلبهِ غياهب الضلال واشرق عليهِ نور دينهِ القويم لم يشأ خدمة غيرهِ وتجرّد عن كل ما سواهُ وفقاً لقول الرسول (٢ طيم ٢ : ٤): «ليس احد يتجنّد فيرتبك بهموم الحياة وذلك ليُرضي الذي جنّدهُ». ولم يشغلهُ عن جهادهِ همّ عائلتهِ فانّهُ كان يعيش فيها بالهناء. وكل افرادها يجارونهُ في خدمة الله كقرينتهِ الصالحة التي عاشت معهُ سبع سنوات لم يكدّر شيءٌ صفاءها وكبناتهِ الستّ اللواتي عشن للسماء منذ نعومة اظفارهنّ وقد قُطفت اربع منهنّ في حداثة السنّ كزهرات يانعات نُقلن الى نعيم الابرار ولهُ في موتهنّ الكتابات المؤثرة

واذ اعتبر فويليو نفسهُ كجنديّ المسيح اراد كالجنود ان يلبس بزّة قائده. وليست بزّة المسيح سوى الفضائل الشخصيّة في الحياة الفرديّة والحياة الاجتماعيّة . وهذه الفضائل قد تلألأت بكل مجاليها في حياة فويليو

فانّهُ قبل كل شيءٍ كان يباشر نهارهُ بالدعاء الى الله ويختمها مع ذريهِ بالصلاة وكان لا يدع صغيرة او كبيرة من فرائضهِ الدينيّة مهما تراكمت عليهِ الاشغال وكان

اذا وجد لهُ متَّسعاً يسرع الى الكنائس فيقضي فيها الساعات في مناجاة ربّهِ وقائد فرقتهِ الجنديَّة »

وكان ايمانهُ حيًّا يرى في معتقدهِ سنداً لحياتهِ وقوَّةً بين مصائبهِ وحلًّا لكل مشكلاتهِ التي كانت ايهظتهُ قبل ارتداده. وكان هذا الايمان منوَّرًا مبنياً على درس عميق مستعدًّا على حسب قول بطرس الرسول للاحتجاج لكل من يسألهُ حجج الرجاء الذي فيهِ. وكان لا يخرج من هدوء طبعهِ ودماثة اخلاقهِ الَّا اذا رأى خصماً يشتم دينهُ او يتحامل على معتقداتهِ فكان وقتئذٍ كالأسد الرئبال يحمي اشبالهُ فلا يقوم في وجههِ مناظر وقد نسب اليهِ البعض الخروج عن حدود الوداعة المسيحيَّة فيجيبهم: « انَّ وداعة الجندي في ساحة الوغى انَّما هي الضربُ الصادق ونصرة الحقوق الشرعيَّة »

وكما كان يحبُّ ايمانهُ كان يحبُّ كلَّ ما يعزّز هذا الايمان ولا سيَّما الكنيسة المقدسة ورأسها المنظور الحبر الروماني ونائب المسيح. فكانت انظارهُ متَّجهة الى رومية والى تعاليم خلفاء بطرس الرسول لعلمهِ بانَّ هناك الصخرة لا تقوى عليها ابواب الجحيم فيُذعن بكل ثقة الى وصايا رئيس الكنيسة الاعظم ويدافع عن اوامرها ولو قام عليهِ العالم كلهُ. ومع ما أتاهُ من الاعمال المشكورة في سبيلها كان لا يعدُّ نفسهُ الَّا كاحد جنودها الصغار فيكرم ارباب الدين كآباء. ويتبع صوت الاساقفة كالخروف صوت راعيهِ ما داموا مرتبطين بمركز الوحدة الرسوليَّة

وكان حبُّ فويليو للكنيسة حبَّ الولد الصغير لأمهِ يجد بقربها فرحاً وراحة. فكان اذا حلَّت بهِ داهية او نالتهُ الاضطهادات من قبل اعدائهِ اسرع الى رومية ليجدد فيها قواهُ بمواجهتهِ إمام الاحبار بيوس التاسع الذي كان يعدُّهُ كأعزّ البنين فاذا رآهُ ضمَّهُ الى صدرهِ وبارك اعمالهُ وانهض همَّتهُ ونشَّطهُ في مواصلة جهادهِ الطيّب واذا نالهُ اذًى من اعدائهِ ذكَّرهُ كلمة الرب: « طوبى للذين يُضطهَدون لاجل البرّ » فيكفيهِ هذا الكلام الوجيز ليعود الى ميدان العراك بنشاط جديد

وكان فويليو لسبب حبّهِ للكنيسة وقف نفسهُ لخدمة كلّ ذويها واخصّهم الرهبان ولاسيَّما الرهبانيَّة اليسوعيَّة فانَّ مقالاتهِ العديدة التي سطَّرها لمناهضة اعداء اليسوعيين تُعَدُّ من ابلغ ما كتب في جريدة « الاونيفير » وهي تُعرب عن صدق

وداده وعن معرفته التامّة لرهبانيّتنا . ومن اقواله الظريفة انّ احد الصحافيّين اراد التهكّم برهبانيّتنا فخلط في جريدته بين القديسين اغناطيوس النوراني الانطاكي المستشهد باقتراس السباع واغناطيوس دي لويولا منشئ الرهبنة اليسوعيّة فاجابهُ فويليو : « لقد صدقت فانّ القديسين قد تشابها بوتهما لأنّ كليهما أُلقيا الى الوحوش »

وكما احبّ الرهبانيّات تفانى في خدمة مصفّ الكهنوت والاكليروس حتى انّهم كانوا يلوذون به في ما يلحقهم من المظالم او يُرمَون به من المطاعن فيردّ كيد اعدائهم بقلم احدّ من السيف

وكان حبُّهُ يشمل كل المحتاجين حتى انّهُ مع فقره كان يُحسن على ذوي البأساء بكرم حاتمي . فكان اصحابهُ يلومونهُ على فعلهِ وينسبونهُ الى قلّة الفطنة وتضحية صوالح بيته فيعدم بالاقتصاد لكنهُ ينسى وعدهُ بعد قليل اذ يتذكّر قول سيّدهِ : لا تكتنزوا لكم كنوزاً على الارض . وربّما كان يحضُّ اصدقاءهُ على مشاركتهِ في صدقاتهِ فيأتمرون بمثلهِ بل اتّصل بهِ الحبّ الى أن ساعد غير واحد من الذين ناصبوهُ وعادَوهُ فصفح عنهم كمسيحيّ صادق ومدّ اليهم يد الإحسان من جملتهم واحد اسمهُ جاكر دي ميركور ثلم عرضهُ في الجرائد بطعنهِ فلمّا دار عليهِ الدهر وافتقر اسرع ڤويليو الى اعانتهِ بمالهِ فردّهُ الى الدين والتوبة ثمّ زهد في الدنيا وصار كاهناً ورحل الى البلاد الاجنبيّة كمرسل

وكان بودّنا ان نتتبّع بقيّة فضائل هذا الرجل العظام لولا ضيق المكان فنكتفي بالقول انّهُ حقّق في نفسهِ قول الكتاب : « انهُ كان محبوباً عند الله والناس فأتاه الرب مجداً كمجد القديسين وجعلهُ عظيماً مرهوباً عند الاعداء » . وسوف يبقى اسمهُ مباركاً لدى اهل الصلاح واحسن ما يُمدح به هذه الابيات التي نظمها لتكتب فوق ضريحهِ وقد عرّبها شعراً اثنان من نجباء طلبة مدرسة البيان في كليّتنا :

اجعلوا بالقُرب منّي قلمي وضَعُوا الصلوبَ مَن فوق الجنانْ
وادفنوا ذا السيفَ عند قدمي واختموا قبري بكل الإطمئنانْ
فليَ الصلوبُ فخرٌ وعزاء
شيّعوني بصلاةٍ للثرى زيّنوا لحدي براية المسيحْ

ان أقمتم عند رأسي حجرا فاكتبوا: آمنتُ بالدين الصحيح
ورأيتُ الله في دار البقاء

لستُ ميتاً بل غريقٌ في الكرى بعد ان انجزتُ سعي بثبات
واذا شئتم فقولوا للورى: قد صحا من بعد ذيّاك الثبات
ورأى ما كان يرجو في العلاء

أنني عبد لإيسوعَ العلي منحمٌ في دينه كل العداة
وبه علّقت حبل أملي انا لم استحي منهُ في الحياة
فهو لن يخجل مني في القضاء

سليم الياس البستاني

قلمي ضعوهُ بجانبي وعلى الفؤاد ضعوا الصليبْ
وضعوا على قدميَّ ذا م التأليف فهو ابنٌ حبيبْ
ثمَّ اختموا قبري بلا قلق وقِفُوا للقريبْ
حتى اذا صأوا على روحي الى الله المجيبْ
وكّزتمُ في حفرتي هذا الصليب دوا القلوبْ
وحفرتمُ فوق الصفيحة إن يمنَّ بها القريبْ
وآمنتُ ثم رأيتُ في دار البقا امرًا عجيبْ
قولوا : لويسٌ راقدٌ قد تمَّ مسعاه المذيبْ
بل قد أفاق فشاهدت أبصاره الحالمَ الرقيبْ
فلقد حضرتُ مؤمّلي يسوع نادي المثيبْ
لم يَندَ وجهي من شرا ذمهِ حياً بينَ الشعوبْ
هل يستحي بي عند وا لدهِ لدى اليوم العصيبْ

سليم ابو رزق